نظرة في شعر المنشئين

والعلماء

تنبيه على وهم وسوء حكم

جاء في الأقوال العربية المأثورة : « من أكثر من شيء عرف به » وهي نظرية أيد الاختبار صحتها وينبغي أن تتلوها هذه « ومن عُرف بشيء فقد جانبا كبيراً من حقه في شيء آخر يحسنه » وكلتا النظريتين تنطبقان انطباقاً عجيباً على المنشئين والعلماء في لغتنا العربية قديماً وحديثاً .

مما لا شك فيه ان المنشئين الذين يقضون معظم أوقاتهم ويبذلون معظم جهودهم في تدبيج مقالات وخطب ومحاضرات ومباحث ومواعظ قلما يتفرغون لغير هذا الميدان من السعي والعمل . وفي جملة الميادين التي يفنونها ميدان الشعر ، وان العلماء الذين يقضون همهم وثمرات أذهانهم على التصنيف والتأليف والتحقيق والتدقيق والتدريس والارشاد قلما يلتفتون الى الشعر اقلة ما يبقى لديهم من فضلة وقت وفضلة جلد على مزاولته . ولكن ليس معنى ذلك — خلافاً لما يتوهمه العامة وفريق كبير من الخاصة — انه ليس من شاعر مطبوع ملهم بين هؤلاء المنشئين وهؤلاء العلماء . فهو استنتاج مخطىء ملؤه المبالغة والشطط . فكثيراً ما يوجد بين هؤلاء الفضلاء من رجال القلم أولو شاعرية صحيحة مدهشة كما قد يوجد بينهم أصحاب مواهب سامية في سياسة أو ادارة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك ولكن ناحية الانشاء والتحقيق العلمي عندهم طغت على غيرها من النواحي فأصبح يظن الفاضل الذي يتعجل الحكم ويرضى به معتسفاً سطحياً ان سائر تلك النواحي معدومة فيهم . واما المنصف المتأمل فلا يجهل أن تلك النواحي عندهم ذات حيوية وكيان محسوس وان حجبتها ناحيتهم الواسع نطاقها في الانشاء والعالمة .

قد يكون هذا المنشىء أو هذا العالم شاعراً مجيداً في أوائل نشأته الأدبية . ثم تخصص بالانشاء أو بتحقيقات علمية في ما لا يبعد عن الشعر والانشاء ولديه بذلك قواعد العربية وأحكامها وفنون بيانها وما يكتنف هذه الألوان من تعليلات وتخريجات . فهل من المعقول أن يفقده طوره الجديد في صناعة العلم مزيته الأولى الأصلية في الشعر ؟ هيهات هيهات .

ولكن من المعقول المنتظر حدوثه ان يزداد شعره متانةً ورونقاً وتتسع آفاقه في ذهنه بفضل ما أفضى اليه اجتهاده من غزارة عرفان وسداد رأي . ان شعره بالصراف قلبه الى سبدان جديد قد فلّ كثيراً في كميته ولكنه زاد قليلاً أو كثيراً في قيمته.

ان غرور المرء بنفسه قد يجد له سبيلاً الى كل فرد وكل جماعة على تفاوت في درجاته وتفاوت العواري، والعوامل من مكان وزمان وبيئة . ولكن حظ هذا الغرور من نفوس العلماء ونفوس المنشئين الفضاء، هو حظ ضئيل ضعيف الخطر بالنسبة الى حظه من نفوس غيرهم من البشر . لأن للعلماء والمنشئين من حذقهم ولضوج مداركهم عاصماً لهم من الغرور والانخداع في أكثر أحوالهم ولا أقول فيها كلها . فان العصمة المطلقة هي لله وحده عز وجل . وبناءً على ذلك نرى في تاريخ أدبنا العربي ان جماعة من أولي العلم وأئمة الانشاء المنثور لم يتطلعوا الى الشعر ولم يفكروا في نظمه لانهم لم يألفوا من أنفسهم مقدرة عليه واضطلاعاً بجيده فعدلوا عنه ضنًّا بعقابهم ومحتهم ولو غلبهم فيه الغرور لراولوه وأتوا به متوسطاً وان الحط عن درجة التوسط كان على كل حال أقل رداءة وتفاهة من شعر جمهور عظيم مولعين بوصال الشعر وهو غير مولع بوصالهم ولا بأن يلمح لهم وجهاً ... ومن الأعلام الأفاضل الذين تكسوا طريق الشعر لشعورهم بابتعاد غرائزهم عنه الجاحظ وابن المقفع وسيبويه والكسائي والسيرافي والأشعري والقاضي الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والفارابي وابن رشد وابو الفداء وأبو حنيفة ومالك بن أنس وابن حنبل وجمال الدين الافغاني وطاهر الجزائري والشيخ محمد عبده ويعقوب صروف وفارس نمر وجرجي زيدان واسماعيل عاصم وكثيرون غيرهم يتعذر احصاؤهم .

وهؤلاء أعلام من جهابذة القول أحسوا بأن لهم من الشاعرية نصيباً ولكنه نصيب صغير لا يلائم مكانتهم العلمية فتنكبوا عنه هيناً يسيراً على سبيل التجريب . ثم أمسكوا عنه . ومن هذه الفئة الخليل بن احمد الفراهيدي واضع علم العروض وعبد الملك الأصمعي العلامة الراوية المشهور .

* * *

وقد يتفق ان فاضلاً من أرباب الاقلام تتوق نفسه الى قول الشعر وهو يحس من نفسه ان ملكته فيه ضعيفة وانه عاجز عن نظم ساطع ناجع ولكنه يشتهي أن يشيع منه نبهته فينظم منه الشيء اليسير لأجل نفسه وارضاء نفسه فلا ينشره ولا يذيعه بين الناس ولكنه ينشده في خلواته مستطلاً به راضياً عنه غير نافر منه لأنه خير ترجمان لوجدانه على طريقة ذوقه فيتذوقها وتشفي حزازة من صدره وان أنكره العلم والفن ، هذه الطريقة

وأمثال هذا الفاضل يعذرون ولا يقام عليهم النكير في ما يفعلون . وما أشبه الواحد منهم برجل يحب الغناء وهو ليس بذي صوت رخيم ولا يعرف من أصول الغناء وشروطه شيئاً يستحق الذكر. ولكنه يريد أن يطرب نفسه وينتعش مقدار ما لحنجرته من قوة وفن فلا يكاد يصل الى مكان مقفر أو فلاة واسعة تضمه على انفراد حتى يرفع عقيرته ويتغنى وينشد ويرتل راتعاً متمتعاً بنوع يختص به من الطرب كيفما شاء وبقدر ما يشاء .

* * *

ولنعد الآن الى ما كنا فيه من حكم الناس قاطبة على ضعف شاعرية فلان أو فلان من الناس وهما من ذوي النصيب العظيم في الشعر. ولكن الناس لم يوازنوا بينهما هذه الموازنة أو تناسوها لأن الرجلين أصبحا مشهورين في زمرة العلماء والمثقفين . جاءني يوماً صديق له فطنة ونظرات دقيقة وليس هو من الأدباء ولكنه يتذوق الأدب ويرفع قدره ويقدر أصحابه . قال لي ذلك الصديق :

— لا شك انك تعرف فلاناً .

— كل المعرفة ، ما شأنك معه؟ .

— اخبرني عن رأيك فيه .

— انه من الممتازين من رجال القلم في منثوره ومنظومه وخطابته ومؤلفاته النفيسة .

— اذن أنت على رأيي في انه شاعر فضلاً عن مقدرته العلمية وكتاباته الناصعة .

— نعم . لا شك عندي في انه شاعر لا من طبقة عالية وكفى ، بل من الطبقة العليا ومن أسهل الأمور اثبات رأيي بالاطلاع على ما هئت من نماذج شعره .

— ولكن حوالينا من ينكرون تفوقه في الشعر ويكتفون بالاعتراف له بمكانة عالية في اللغة وأصولها وآدابها ونوادرها وشواردها .

فتبسم محدثي وقال : — وأزيدك علماً أن الناس لم يكونوا يحكمون له إلا بقوة الشاعرية وحدها وهو في أوائل نشأته ثم لما ظهرت مقدرته في كتابات مختلفة قال فيه بعضهم إنه كاتب خير منه شاعراً. وقال آخرون إنه كاتب لا شاعر . ثم لما انصرف الرجل الى التصنيف والتحقيقات اللغوية والأدبية قالوا إنه أستاذ أو انه عالم وسلخوا عنه الشاعرية وكادوا يسلخون عنه أيضاً ما عهدوه فيه مراراً من مقدرة كتابية في الأخلاق والاجتماع والوطنية والادارة .

— هذا هو الواقع بعينه ؛ فما الذي يدعوهم إلى هذه الأحكام المجحفة .

— الدواعي كثيرة تختلف باختلاف الأحوال فهي الحسد عند هذا . والجهل عند ذاك .

ورعونة الطبع في سرعة عند ذلك ، وتقليد اللاحقين للسابقين في آرائهم عند فريق كبير .

— أليس من علاج لهذا الجور وهذا الخطأ ؟

— إن الحسني النية من هؤلاء المخطئين الجائرة أحكامهم هم الذين لا يدفعهم حسد ولا كبرياء ولا عناد يسهل علاجهم وشفاؤهم لأول وهلة بحسن تنبيههم وباطلاعهم على انتقاد غيرهم لهم . وأمّا السيئو النية فدواؤهم يرافقهم الى قبورهم .

***

وصلنا الآن الى ما يجدر بنا إيراده من نماذج الشعر الجيد لجماعة من المنشئين والعلماء تأييداً لما نحن في صدده من أن رجال هذا السلك فيهم شعراء مطبوعون كما ان فيهم من لم يحسنوا قول الشعر ، ولم يخطر لهم على بال . وقد أجلنا النظر فاستصوبنا أن نكتفي بذكر طائفة من هؤلاء الأعلام ورواية نتف من شعرهم مرتبة أسماؤهم ترتيباً تاريخيًّا

***

(الشافعي) هو أحد الائمة الأربعة المقدمين عند أهل السنة على سواهم أبو حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وابن حنبل . واسم الشافعي متمماً هو ابو عبد الله محمد بن ادريس العربي المدني القرشي عرف بالشافعي نسبة الى جده جده . كان من عجائب الدهر في الذكاء والحفظ وقوة العارضة . ولد في غزة وتوفي سنة ٢٠٤ هجرية . ومن تلاميذه الامام الرابع احمد بن حنبل . اشتهر الشافعي بالتقوى والزهادة وعزة النفس . وقد أجاد نظم الشعر وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإنما حكم على الشعر بعدم النيل لا بحد ذاته بل بالنسبة الى كثيرين من الشعراء الذين اطلقوا شعرهم بالاسترفاد أو الترفّع أو الهجاء المقذع والافتراء . ومن شعره قوله :

علىّ ثياب لو تباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا

وفيهنّ نفس لو تقاس بفضلها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وقوله في الاعتزاز الى تأثير الجد أي الحظ :

الجدّ يدني كل أمر شاسع ... والجد يفتح كل باب مغلق

فاذا سمعت بأن مجدوداً حوى ... عوداً فأورق في يديه فصدق

واذا سمعت بأن محروماً أتى ... ماءً ليشربه فغاض فحقق

ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وقوله : خذوا بيدي هذا الغزال فانه ... رماني بسهمي مقلتيه على عمد

ولا تقتلوه انني أنا عبده وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

* * *

(ابن السكيت) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكيت. وقد لقب أبوه سكيتاً لكثرة سكوته مع ما له من صلاح وتقوى وسعة علم. وقرأ ابنه عليه في أول أمره. واشتهر يعقوب بن السكيت بمعلوماته اللغوية وغزارة ما يرويه عن العرب والعلماء الذين تقدموه. ولد في دورق وهي بلدة صغيرة من أعمال خوزستان وتوفي سنة ٢٤٤ هجرية ومن شعره قوله:

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واستقرت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منه غوث يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات اذا تناهت فموصول بها فرج قريب

* * *

(أبو الفرج الاصبهاني) هو أبو الفرج علي بن الحسين الأموي ولد بأصبهان ونشأ في بغداد وتوفي سنة ٣٥٦ هجرية. وكان من فحول الأدباء والمصنفين وخير مؤلفاته كتاب الأغاني الطائر الصيت وهو مؤلف ضخم يقع في واحد وعشرين جزءاً يروى له شعر حسن منه قوله مادحاً الوزير المهلبي.

ولما انتجعنا لائذين بظله أمان وما منّى ومنّ وما منّا
وردنا عليه مقترين فراشنا وردنا نداه مجدبين فأخصبنا

وكان بين الاصبهاني وبين القاضي أبي سعيد الحسن السيرافي منافسة وخصومة فهجاه الاصبهاني بقوله:

لست صفراً ولا قرأت على مد ر ولا علمك البكيّ بشافي
لعن الله كل نحو وشعر وعروض يجيء من سيرافِ

* * *

(الصابىء) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الحرّاني المعروف بالصابي لأنه كان صابئياً نسبة الى الصابئة الذين يعبدون الأجرام السماوية ويتوجون بها عبادة الخالق سبحانه وتعالى. وفي العربية صبأ فلان عن دينه أي خرج وخرج منه فالصابىء معناه أيضاً الخارج عن دينه وهو غير المعنى المقصود باسم صاحب الترجمة. وقد ولد في حران وتوفي سنة ٣٨٤

هجرية . وكان يعد في الرعيل الأول من كبار المنشئين والبلغاء . وله شعر جيد وقد حاز حظوة عظيمة لدى متبوعه الوزير المهلبي. ولما توفي الوزير اعتقل عماله وفي جملتهم الصابيء ثم أطلق سبيله وأعيد الى عمله . وفي أثناء اعتقاله نظم قصيدة يستعطف بها رؤساؤه . ومنها قوله :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم أوقت رسائله على التعديد
أيجوز في حكم المروءة عندكم حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتم كتباً شحنت فصولها بفصول در عندكم منضود
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم عند الحميد بهنّ غير حميد
أنا بين اخوان لنا قد أوثقوا بسلاسل وجوامع وقيود
وموكلين بنا نذل بعزهم فكأننا لهم عبيد عبيد
والله ما سمع الأنام ولا رأوا نقداً توكّل قبلها بأسود

* * *

(الصاحب بن عبّاد) يعد من طبقة الصابيء في البلاغة ومحاسن الانشاء ولد في الطالقان من أعمال قزوين وتوفي سنة ٣٨٥ هجرية . وكان في الدولة السلجوقية وزيراً للسلطان مؤيد الدولة ثم لأخيه السلطان ظهر الدولة . وكانت له حضرة عامرة برجال الفضل والعلم لا يقل فخرها عما عهد في مجالس أكابر الملوك والخلفاء. وقد اشتهر بالسخاء واسعاف الضعفاء وأولع بجمع الشعر وجمعه ورواية منتخبات منه . ولم يحرم شاعرية طيبة يستخدمها حيناً بعد حين . ومن شعره قوله :

رقّ الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنها خمرٌ ولا قدحٌ وكأنه قدحٌ ولا خمر

وفي جملة الذين قصدوه أبو بكر الخوارزمي فأكرمه الصاحب ولاطفه وأنعم عليه بصلات سنية ، وبعد افتراقهما هجا الخوارزمي الصاحب وتنقصه فانقلبت مودة الصاحب له الى كراهية واحتراز . ولما توفي الخوارزمي قال فيه الصاحب :

سألت بريداً من خراسان آتياً أمات خوارزمكم قال نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الديان من كفر النعم

* * *

(ابن فارس) هو أبو الحسن احمد بن فارس الرازي نسبة الى الري المدينة في أيامنا المعاصرة طهران وهي عاصمة ايران . توفي في سنة ٣٧٧ هجرية قرأ عليه جماعة من

رجال البلاغة بينهم بديع الزمان الهمذاني والصاحب بن عباد . وكان على قلة ماله جواداً متلافاً وهو في أصله الفارسي مولعاً بحب العرب متعصباً لهم على غيرهم وهو معدود من علمائهم المبرزين وكلما أراد النظم كان شعره جيداً رشيقاً . ومنه قوله : وفيه أشارة واضحة الى كرم طبعه واتباعه مذهب التفاؤل وحسن الظن .

وقالوا كيف حالك قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج
اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمي هرتي ومسرور قلبي دفاتر لي ومعشوقي السراج

وأدبنا العربي فيه زوايا، وهاج نورها، مسكي عبيرها، تشتمل على هذه النفثات الطيبة في مبدإ التفاؤل وحسن الظن والحث على الجلد وسعة الصدر . ومنها الأبيات التي روينا ها آنفاً لابن السكيت ومطلعها:

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب

فيجدر بنا ولا سيما ناشئتنا المدرسية ان ننتبه الى هذه الزاوية الشعرية ونروي جانباً منها ونتخذها فلسفة عملية في معيشتنا وسيرتنا فتفيد ومنا وتقوي عزائمنا .

ومن شعر ابن فارس مخاطباً الكسول المتهاون في طلب العلم موبخاً له متهكماً عليه :

اذا كان يؤذيك حر المصيف وكرب الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى

وقال في صديق قاطعه ثم عاوده . وهذا القول أيضاً ينم عما ذكرناه من كرم طبعه ، ولا يتأتى نضج العقل إلا من وراء كرم الطبع :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيراً منه عدت اليه

٥٥٥

(عبد العزيز) وهذا أيضاً من طبقة الصاحب والصابي . تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة من سلاطين آل بويه ثم تولى الوزارة مراراً بعد وفاته لدى أولاده وابنه أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف توفي سنة ٤٠٥ هجرية ومما كتبه نظماً في مراسلاته الى الصاحب ابن عباد قوله :

سقى الله ذاك العهد عهداً من الحيا وتلك الصبايا الخرد الغر السحائب
تذكرت أيامي بقربك والمنى تقابلني بالعز من كل جانب

وقد لحظت عيناي من شخصك العلي ومن فرحك الغيثان أعلى المناسب
فقاضت على خدي سوابق عبرة كما أسعفت عقداً أنامل كاعب
سلامٌ على تلك المكارم والعلى تحية خل عن جنابك غائب
يكابد ما لو كان بالسيف ما مضى وبالبرق لم تبلل طماة لشارب
وما أنا بالنابي صنائعك التي كتبن عليَّ البرق ضربة لازب

***

(ابن سينا) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين امام الأطباء في عصره مع تضلع من الأدب والفلسفة. أصله من بخارى وقد طاف في كثير من الأقطار وتوفي سنة ٤٢٩ هجرية وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاباه الطبيان «القانون» و«الشفاء» وكلاهما ضخم يقع في عدة أجزاء. وقد اختصر الشفاء بكتاب آخر سماه «النجاة» ومن شعره قوله:

اجعل طعامك كل يوم مرةً واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيَّك ما استطعت فانه ماء الحياة يراق في الأرحام

وله قصيدة في وصف النفس مما يتعلق بفلسفة ما وراء المادة. يقول فيها مستعملاً الاستعارات والتلميحات:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كرهٍ إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنع
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برقٌ تألق في الحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

***

(الثعالبي) هو ابن منصور عبد الملك الثعالبي نسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها قيل له ذلك لأنه كان فرّاء. ولد في نيسابور وتوفي سنة ٤٣٩ هجرية كان في زمانه زعيم علوم العربية وخير مؤلفاته «يتيمة الدهر» في ثلاثة أجزاء ذكر فيها أدباء العربية وسيرهم ونماذج من شعرهم. ومن شعره يمدح الأمير أبا الفضل الميكالي:

لك في المفاخر معجزات جمة أبداً لغيرك في الورى لم يجمع
بحران: بحر في البلاغة هابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
وتوسل الصابي يزين علوه خط ابن مقلة ذو المحل الأرفع

كالنور أو كالبحر أو كالدر أو كالوشي في برد عليه موشّع

* * *

(ابن التلميذ) هو أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن ابراهيم بن التلميذ الطبيب النصراني اشتهر بسعة علمه وسخاء كفه ومكارم أخلاقه فوق خدمته في الطب وكان رئيساً للأطباء ببغداد توفي سنة ٥٦١ هجرية . وله شعر قليل وكله جيد ومنه قوله :

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للأحمق الطيّاش
مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعشي أعين الخفاش

وقوله في وجوب التواضع ، وكان على رفعة مقامه متواضعاً بغير تكلف :

اذا كنتَ محموداً فإنك مرمد عيون الورى فاكحلهمُ بالتواضع

* * *

(ابن جُبير) : هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكتاني الرحالة الشهير . ولد في بلنسية من أعمال الأندلس وتوفي سنة ٦١٤ هجرية وله كتاب رحلة مشهور وهو رحلة ابن جبير . وكان عظيم المروءة والهمة يجد لذة في نفع الناس وقضاء حاجات من يقصدونه وفي ذلك يقول :

يحسب الناس بأني متعب في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم من ذاك لي راحة في غيرها لن أفكرا

ويحكى عنه أنه لما دخل بغداد اقتطع غصناً لضيراً من أحد بساتينها فدوى فقال فيه :

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا ما فارق الأصل ذوى

وقال منذداً بضعف تدين جماعة يدّعون الفلسفة :

يا وحفة الاسلام من فرقة هاذلة أنفسها بالسّفه
قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفه

* * *

(أبو بكر بن زهر) : أشهر أبناء زهر وهم من أطباء الأندلس . ولد ونشأ في اشبيلية وامتاز في طبه وعلمه . وكان له حسّاد يشون به عند رؤسائه فلما لم ينالوا منه منالاً تناوله غدراً بسم دسوه في طعام له . وكانت وفاته سنة ٥٩٦ هجرية . ومن شعره قوله يتشوق الى ولده :

ولي واحد مثل فرخ القطا صغيرٌ تخلف قلبي لديه

نأت عنه داري فباوحشتي لذاك الشخيص وذاك الوجيه
وقد تعب الشوق ما بيننا فنحه الي ومني إليه

ونظر يوماً في مرآة وهو في أواخر عمره فرأى آثار الكبرة على وجهه فأنشد : —

اني نظرت الى المرآة اذ جُليت فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالامس كان هنا متى ترحل من هذا المكان متى
فاستجهلتني وقالت لي وما لطقت قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
كانت سليمى تنادي يا أخيّ وقد صارت سليمى تنادي اليوم يا أبتا

* * *

هؤلاء جماعة من علماء العربية ومنشئيها الذين تثبت لنا منظوماتهم انهم فضلاً عما عرفوا به من ناسع منثورهم ونفائس مباحثهم ومؤلفاتهم لا يحرمون نصيباً حسناً من الشاعرية فبعضهم يحسبون من شعراء الطبقة الأولى وبعضهم الآخر يحسبون من الطبقة الثانية . ولو أردنا ان نضم الى هؤلاء الاعلام عشرة أضعافهم عدداً لامكننا ذلك بغير مشقة عظيمة ولا تفتيش طويل . ولكننا لا نرى وجهاً لهذه الافاضة ونحن الساعة ننشىء مقالة لا نصنف كتاباً .

ومما يجدر بنا الاشارة اليه في هذا المقال ان بعض المدققين من أعيان الادباء زعموا زعماً لا يخلو من صواب وحسن ذوق في بعض أحواله ومن مبالغة واستبداد حكم في بعضها الآخر . ولا يعسر على المتوسط العلم والفهم ان يميز بين الحالتين . زعموا أن بعض المفردات والمركبات التي هي فصيحة بحد ذاتها لا يليق استعمالها في الشعر حتى نعدها ألفاظاً غير شعرية ومعظم هذه الالفاظ ينحصر في عبارات اصطلاحية فنية لعلم أو فن أو صناعة أو سلك سياسي او سلك اداري والصحيح أن هذه الالفاظ يقبح وقعها اذا استعملها الشاعر مراراً في المنظومة الواحدة أو اذا استعملها ولو مرة واحدة ولكن في غير سياق يمهد السبيل إليها ويجهز المعد لهضمها وتمثيلها فاذا روعي هذا الشرط فلا بأس من التعريج عليها.

ذكروا أن شاعراً روى جليسه قصيدة أمامه فلما سمع مطلعها وهو :

لم أدر حين مررت بالاطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

صاح هذا شعر رجل فقيه . فقال له محدثه : نعم فالقصيدة هي لنظم فلان فكيف عرفته. قال : كشفته في عبارته ما الفرق . فهي كثيرة الدوران على ألسنة الفقهاء، وقلما تجري على لسان شاعر .

ولكن هذه الدهشة المزعجة يزول موضعها — لذا لم نقل هذا الاستنكار يزول بوصفه — حين يكون البيت قد سبق بجملته الى ناحية فنية فيصلح له لفظ فني ولو لم يكن من الألفاظ الشعرية . ومن ذلك ما قلته في مطلع قصيدة لي عنوانها « على مدخل الحسين من العمر » .

حساب الليالي الجاريات اقتضى منا رصيداً وهذا الديب ينقله عنا

فان الحساب الجاري لليالي ورصيد الحساب ونقل الرصيد كل ذلك ألفاظ تجارية لا شأن فيها للشعر ولكن موقعها في هذا البيت لم يقبح لأنه سبق بجملته إليها فأعدت الأذهان والأذواق لقبوله : والطريق التي سلكها هنا هي ما يسميه البيانيون استعارة تمثيلية وما يسميه البديعيون مراعاة نظير .

ومن الألفاظ التي هي غير شعرية ولم نألفها إلا في مباحث الكتاب لفظة « جداً » ولفظة « أيضاً » ولكني رأيت بعض الشعراء استعملوها في سياق موافق لها فجاءتا مستعذبتين . قال المقنع الكندي أحد شعراء الجاهلية :

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جداً
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هم هَوَوا غيي هويت لهم رشدا

وقال غيره من الشعراء المولدين :

ولما دنت والستر مرخي ودونها غيارى غدت تغلي صدورهم حقدا
تقدمت أبغي أن أبيع بنظرة إلى وجهها روحي لقد رخصت جداً

بهذا الذي أتذكره من حسن استعمال « جداً » ورصوفها في موضعها . والذي اتذكره من حسن استعمال « أيضاً » قول بعضهم وأظنه القاضي ناصح الدين الارجاني :

رأتني وقد نال مني النحول وفاضت دموعي على الخد فيضا
فقالت بصبٍّ هذا السقام فقلت صدقت وبالخصر أيضا

ومحصل القول ان الحكم العقلي والشواهد العيانية تؤيدان اجتماع الكاتبية والشاعرية في فلم واحد لا يعد أمراً مستغرباً ولا نادراً . فالصناعتان مزجهما عنصر واحد ولهما أغراض متقاربة ووسائل متشابهة فليس الكاتب حارس غابة مثلاً والشاعر نوتي مركب لكيلا ينسى الواحد منهما تأدية العملين معاً .

اللاذقية (سورية) الدكتور مرقص